الحاجة إلى الفتوى الشجاعة

الشيخ جعفر المهاجر

ما من شعيرة من الشعائر كانت ميداناً للآراء المختلفة بين أهلها أنفسهم، ثم بين أهلها وغيرهم، مثل إحياء ذكرى يوم كربلاء، الذي اتخذ عنواناً (يوم عاشوراء)، وهو الاسم الذي كان من قبل أن يتبلبس بيوم سيد الشهداء مختصاً باليوم.ثم صار علماً مختصاً بالذكرى وشعائرها، وتُنوسيت مناسبة الاسم الأصلي، بحيث لم نعد نعرف لماذا اختص العاشر من المحرم باسم (عاشوراء)، دون غيره من عاشر الشهور الأحد عشر الأخرى.

يقص علينا أهل التاريخ الكثير عن الفتن العنيفة المتلاحقة، التي رافق أول إحياء جماهيري نعرفه للذكرى، بين أهل (الكرخ) الشيعي وأهل (الرصافة) من (بغداد)، في القرن الرابع للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. وذلك كلما عاد أهل (الكرخ) لإحياء الذكرى على طريقتهم من كل عام. وما كان ينتج عنها من نهب وقتل وتخريب بالغ. وما تزال هذه الفتن تتجدد في أيامنا هذه. بكل عنفها ودمويتها، في بلدان شبه القارة الهندية الكبرى: الهند وباكستان وبنغلادش، فضلاً عن أفغانستان التي كان من حظها في تاريخ هذه الشعيرة، إن إحدى أشهر مدنها احتضنت أهم تطور في طريقة إحياء الذكرى. فكأنما كتب على الحدث الكربلائي أن يستمر في الزمان. يكشف ما هو كامن في طبع البشر من ميل للعنف الصبوغ بالدم.

كان لمنطقتنا دورها في هذا المعترك. في أوليّات هذا الرقن رأينا الخلاف والاختلاف بين من يتفقون على أصل الإحياء، ولكنهم يتخلفونفي وسيلته وسبيله. خلاف لم يكن فيه دم. ولكن كان فيه من الحيف ما يضعه أدنى قليلاً من مستوى الدم. ذلك الذي شجر بين الشيخ عبد الحسين صادق والسيد محسن الأمين رحمات الله عليهما. وانقسم الناس وراء هذين، بين من يؤيد الشيخ ويؤيد السيد. وهو خلاف محمود لولا ما شابه من عنف وقسوة. غطتا على ما كان يتمتع به الرجلان من علم جم، وما انطوت عليه نفساهما من غيرة على مقاصد الشريعة.

ومعلوم أن آل صادق. هم من استورد من (العراق) الطريقة العراقية_ الإيرانية، وربما الهندية، في إحياء الذكرى، بما فيها من تمثيل وتفجع، يصل إلى حد لطم الصدور وضرب الظهور بالسلاسل المعدنية، وضرب الرؤس بالسيوف والمدى، الأمر الذي رأى فيه السيد الأمين بحق، بدعة تخرج عن حدود الشرع، ووضع في سبيل توجيه رأيه كتباً وبحوثاً شحنها بالأدلة والبراهين على صحة ما ذهب إليه، على طريقته الشاملة والدقيقة الشهيرة.ولسنا نعرف للشيخ صادق رداً على كلام ومذهب السيد الأمين يكافئه في منهجيته. ولمنه وهو الشاعر الكبير ترك العنان مشنعاً على السيد في كل مناسبة. ومن ذلك قوله مخاطباً زوج ابنته السيد محمد جواد شرف الدين:

إذا درج الصيف مثل الشتاء

وأنت النئي عن المقلتين

فليست سعادك مثل النساء

لما بين جنبيّ والساعدين

إلى أن يقول:

تجدني إذن تاركاً مذهبي

كمن سن تحريم ندب الحسين

فلست الملوم على مذهبي

إذا ما نسبت له كل شين

يعني بالبيتين الأخيرين السيد الأمين. ولا مراء في أن هذا كلام ظالم جداً من الشيخ بحق أخيه. فلا شك بأن السيد لم يكن تاركاً مذهبه. وهو الذي تشهد له كتبه الكثيرة حتى اليوم بما أضاف وحقق ونافح. ولا شك ثانياً بأنه لم يحرم ندب الحسين على الإطلاق، ولا شك ثالثاً بأن تحريم ما كان يجري في (النبطية) بتوجيه من الشيخ صادق، وما يزال حتى اليوم، ليس مجرد ندب، والقصة طويلة نكتفي من ذكراها بهذا القدر.

لكن الذين أوصلوا المعركة الناشبة في (الشام) إلى مداها، وخرجوا بها عن كل ما هو مقبول، هم خطباء المنبر الحسيني في (العراق). فهؤلاء ما إن تلقوا أصداء السجال الدائر عندنا، حتى أطلقوا من على منابرهم حملة قاسية على السيد الأمين، لو توفّر وسيلة من وسائل التشنيع الخالي من الورع إلا ارتكبتها، حتى لقد قال قائلهم:

وإذا مررت بجلّق

فاتفل بوجه أمينها المتزندق

ولقد حدثني بعض أهل مدينة (العمارة) في جنوب (العراق) أن الخطيب الشهير السيد صالح الحلي،خطب بالناس في المدينة، وكانت المعركة آنذاك في أوج احتدامها، خطاباً كله نيل من السيد، بما في ذلك البيت المذكور أعلاه. فلما وصل الخبر إلى مسامع الشيخ حبيب آل إبراهيم رحمات الله عليه، وكان يومذاك يقيم فيها، قال للناس في مسجد: (يا أهل العمارة، في بلدكم مُزّق القرآن. وفي بلدكم شُتم السيد محسن الأمين) يشير إلى ما كان ارتكبه أحد المبشرين البروستانت في المدينة قبل سنوات. إذ وقف ومزق القرآن علناً أمام الناس المذهولين الخائفين، لأن حملة التبشير كانت محمية بالبنادق الانكليزية. وفي اليوم التالي جاء السيد الحلي إلى مجلسه، فوجد أن الحسينية الكبيرة خالية ليس فيها أحد، وهي التي كان يحتشد فيها وفي الساحة المجاورة لها عشرا الألوف من المستمعين إلى كلام الخطيب الساحر البيان. وترك الحلي المدينة متبرماً مغتاظاً وهو يقول: (ما غلبني إلا هذا العاملي)، وانتهت المسألة محلياً عند هذا الحد. ولكن السجال ظل عالقاً في العراق لسنوات.

هذا التاريخ العنيف، الملتبس بين الأتباع والإبداع، بين ما هو سنّة حسنة وما هو سنّة سيئة، بين ما هو مقبول وما هو مردود، بين ما هو صحيح وما هو مكذوب؛ يشكل مساحة شاذة في الشعائر المعمولبها عندنا، لأنها وحدها لم تخضع لدراسة الأكفاء واجتهاداتهم شأن كل ما سواها. وما ذاك في رأينا إلا لأنها كانت، منذ أن تأسست، ممارسة شعبية وما تزال، دور أهل العلم الأحرار ذوي المناهج الصلبة فيها ضئيل، وأكاد أقول معدوم، ولذلك فإنه يستحق بالفعل أن يمحص ويستخرج أصيله من مزيفه.

لقد اكتشف الجمهور وحده القوة الهائلة والمتجددة في الذكرى الحسينية، بوصفها تعبيراً لا لبس فيه، وفي غاية الوضوح، عن أسلوب ونهج في التحريض والمقارعة، فغاص فيها حتى النهاية ومن دون أدنى تحفّظ. واكتشف الخطباء الحترفون القوة المالية الهائلة والمتجددة أيضاً في إحياء الذكرى نفسها،بوصفها مصدراً ممتازاً وهيناً للرزق، فغاصوا فيها هم أيضاً حتى النهاي. وطبعاً لا يمكننا أن نتوقع أو أن نطالب هؤلاء ولا أولئك بأن يتحروا من الصحة والدقة في ما يقولون أو يقبلون. لأنهم ليسوا مؤهلين لذلك فضلاً عن أن الخطباء المحترفين هم دائماً بحاجة إلى مادة إضافية، تلبي حاجة المنبر الناشط طول السنة.وفي سبيل ذلك عمدوا إلى الاختلاق والتزويق والتقويل والتهويل دونما وازع أو رقيب. هكذا نشأت عندنا، كما تخبت الغابة، شعيرة من الشعائر، تتمتع بحيوية مدهشة، وعمق جماهيري كبير، لكن القسم الأكبر من مادتها قادم من خارج كل الأصول الدقيقة المرعية بكامل الدقة في جميع الشعائر الأخرى.

مما لا ريب فيه أن الأئمة عليهم السلام، منذ رابعهم الإمام علي بن الحسين زين العابدين، قد عملوا بكل وسيلة متاحة لهم على إبقاء ذكرى يوم كربلاء حية في النفوس. كل بقدر ما يمنحه إياه هامش الحرية الذي يتحرك فيه. فكان منهممن يحث الشعراء الموالين على نظم الشعر الفاجع لينتشر بين الناس. والشعر كما هو معلوم كان أفضل وسيلة لنشر الأفكار، واستنهاض الناس وتحريك الوجدان وعدوى المشاعر. كما كانوا يستنشدونهم شعرهم في مجالس يعقدونها في شهر المحرم خصيصاً لهذا الغرض. حقاً إنها لم تكن حاشدة بألوف الناس كما هي مجالسنا اليوم، بل كانت تقتصر على مواليهم المخصين، وحتى أطفالهم ونسائهم. لكن الغاية التأسيسية منها واضحة لا تحتاج إلى كبير إعمال فكر واجتهاد. وهكذا يمكن القول أن مجالسنا الحسينية اليوم هي في أساسها وأصولها ومنبعها ابنة تلك المجالس التي كان يعقدها بعض أئمتنا عليهم السلام سراً وراء الأبواب المغلقة.كل هذا فضلاً عن عشرات النصوص، الثابتة الصدور عنهم في الترغيب والحث على إحياء ذكرى يوم كربلاء.

هذا كله في ما يعود إلى أصل الإحياء وأساسه.

أما في ما يعود لمراسمه فمن المؤكد أن الاحن=تفال الشعبي بالذكرى لم يفتر منذ القرن الرابع للهجرة/ الحادي عشر للميلاد على القل. حيث كان أهل (الكرخ) من (بغداد) يعلقون المسوح السداء على جدران المساجد والأزقة شعاراً للحزن. وينظمون مسيرات حزينة للغرض نفسه. ومثل هذا نجده في (حمص) في الفترة نفسها أو بعدها بقليل. ويصف لنا ابن طولون الصالحي في (مفاكهة الخلان) وصفاً نادراً لمسيرة حزينة في (دمشق)، في القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد. ومن شبه المؤكد أن الإحياء ومراسمه في كل هذه الحالات، كان عملاً شعبياً خالصاً، وهو ما يشير مرة أخرى إلى العمق الشعبي للممارسة. وإن كنا لا نستطيع أن نغفل هنا دور الشعراء في إيقاد حزن للناس. وأبرز هؤلاء في المنطقة الشامية ديك الجن الحمصي الذي ترك لنا مجموعة من أروع وأفجع المراثي في الإمام الشهيد عليه السلام، ثم أبو العلاء المعري.

لكن الانعطافة الكبرى والمستمرة في طريقة الأحياء حصلت في أوائل القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد. وكانت من نصيب مدينة (هراة) التي تعد اليوم من (أفغانستان). ولكنها

كانت يومذاك عاصمة لدولة حكمها آخر سلطة من أحفاد تيمورلنك، هو السلطان حسين بايقرا التيموري (ت: 911هـ/ 1506م).

المفاجئة هنا، أن ما أطلقها عليه بحق انعطافة كبرى في هذا المجال، قد حدث في بيئة ثقافي غير شيعية. وكان بطلها فقيهاً حنفيّاً هو كمال الدين ابن علي الحنفي، الشهير بلقب (واعظ كاشفي) (ت: 910هـ/ 1504م)

كان (واعظ كاشفي) فقيهاً حنفيّاً كما عرفنا صوفيّاً من أتباع الطريقة النقشبندية، كما كان واعظاً موهوباً في هذا الفن، ذا اطلاع واسع في جميع ميادين المعرفة المعاصرة له. ألف سبعة وثلاثين كتاباً، عامتها في الفقه الحنفي والتصوّف والوعظ. أشهرها على الإطلاق كتاب (روضة الشهداء في مقاتل أهل البيت). وهو كتاب يفصل تاريخ الأئمة عليهم السلام، لكن أكثره مخصص لواقعه كربلاء، في سرد نثري فارسي مرصع بالشعر والنصوص العربية.

كان لكتاب (روضة لشهداء) صدي بعيد بين الشعوب الناطقة بالفراسية. حتى لقد أصبحت تلاوته شغل الناس الشاغل. وفي هذا السياق نشأت مهنة جديدة لها رجالها. عملهم قراءة الكتاب في المجالس المعقودة لهذا الغرض. وصار هؤلاء يعرفون بـ(قارئ الروضة). بالفارسية (روضة خوان) وما يزال هذا الاسم هو الدائر على الألسن في (العراق) لخطباء المنبر الحسيني، ينطقونه بالضاد الفارسية، التي يلفظونها كحرف الزاي فتغدو (روز خون).

كان من حظ التطور الهام، أن حدث عشية قيام الدولة اصفوية في (إيران). بل ويقال أنه كان من عوامل نجاح هذه الدولة، ومن المهيئات لقبول الناس لسياستها. ولذلك فقد كان من الطبيعي أن تتلقفه وترعى نتائجه بل وتدفعها إلى أقصى ما يكون.

هناك ملمح آخر في هذا التطور، يجتوز الشكل والطريقة ليصل إلى المضمون، فالقارئ الخبير لـ(روضة الشهداء) اليوم، يلاحظ أنه أضاف بُعداً جديداً إلى (أحداث) يوم كربلاء. لا شك في أنه قادم من الخيال الخصب لمؤلفه، وخصوصاً من نزعته الصوفية. من ذلك مثلاً رواية يوردها تقول، إن رئيس الجن ظهر للإمام الشهيد قبل مقتله، وقال له إن جيشاً من الجن ممن أسلم على يد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ينتظر إشارة منه ليمحق أعداءه. فأبى الحسين إلا أن يمضي قضاء الله. وهذا نَفَس لا نجده في الكتب الموثوقة المعنية بالموضوع نفسه، السابقة على كتاب كاشفي. مثل مقتل أبي مخنف والإرشاد للشيخ المفيد وتحف العقول لأبي شعبة الحراني، واللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس.

الخلاصة: إنه كان من تأثير كتاب (روضة الشهداء) ومؤلفه، ثم الظروف السياسية والثقافية التي انتشر فيها بين الناس، أنه أولاً نشأت مهنة جديدة هي قراءة (التعزية) في المجالس المخصصة لها. ثم كان من أرباب هذه المهنة أن أخذوا ينسجون على منوال الكتاب ويُعمِلون خيالهم في توليف الأخبار الغريبة ابتغاء تضمين مجالسهم ما يحرك مشاعر الناس وما يلبي الرغبة عندهم بكل عجيب وخارق. وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن جماعة من المؤلفين ساهمت مساهمة مذكورة في هذا الباب. بطل هؤلاء من دون منازع العراقي السيد عبد الرزاق المقرم، الذي اختص بالكتابة في ما يلبي حاجة أهل

المنابر، ولطالما سمعنا هؤلاء يسندون أخبارهم إليه، من دون أن يقولوا لنا إل ى من يسند هو العجائب والغرائب التي دأب على حشو مؤلفاته بها.

في ختام هذا التاريخ لنشأة وتطور مجالس (التعزية) علينا أن نذكر أن هذا التطور قد انحصر لمدة غير قصيرة في إيران. وبعد خروج العثمانيين من الأقطار العربية، انتشر بسرعة إلى العراق ومنها استورده مشايخ آل صادق إلى بلدهم النبطية، مع ما كان قد جد عليه منلطم وتطبير وتمثيل. ومنها اتنشر إلى بقية المناطق ذات الأغلبية الشيعية من لبنان.

على الرغم من أن السمة الشعبية الكاسحة لهذا التطور قد جعلت من العسير على أي إنسان مهما كان، أن يقف في طريقه على ما فيه من مآخذ واضحة، فإننا نجد الكثيرين من كبار العلماء والكتّاب يضعون كتباً مخصصة لنقد المراسم وتصويبها. في طليعة هؤلاء ورائدهم السيد محسن الأمين، الذي شن عليها حرباً شعواء، وكتب في هذا السبيل واحداً من أشهر كتبه. وتلقى بصبر وتسليم العالم الذي يؤدي واجبه، أشرس الردود. وقد حاول في كتابه (المجالس السنية) أن يقدم نموذجاً سليماً لمادة موثقة ومقنعة. وعقب عليه السيد عبد الحسين شرف الدين في كابه (المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة) و (النصوص الجلية في مآتم العترة الذكية) والشيخ حبيب آل إبرهيم في كتابه (ذكرى الحسين). والذي يقرأ مقدمات هذه الكتب، قرراءة دقيقة يكتشف بدون مشقة أن هؤلاء لم يكونوا يؤدون عملاً تبليغياً عفوياً بل كان في عمق قصد كل منهم ترشيد وتصويب مراسم إحياء ذكرى سيد الشهداءوتحريرها مما علق بها خلال هذا التطورالعشوائي مما لا يتناسب مع المنهج السديد والأصول المرعية في إقامة الشعائر الدينية وإحيائها.

وفي إيران وضع المرحوم الدكتور علي شريعتي كتابه المعروف (قوماً) ثم تلاه الشهيد مطهري بكتابه (الملحمة الحسينية) والكتابان من منهج متقارب، من حيث أن كلاً منهما يُعنى بعزل المادة الداخلية أو المشكوك بصحتها في ما يُتلى على الناس في المجالس الحسينية، أو ما يجري في المراسم المرافقة لها.

لكننا نسجل هنا بعد أن استقرأنا أهم وأشهر ما كتب في هذا الموضوع أن كل هذه الأعمال لم تترك تأثيراً يذكر، لا على المنبر الحسيني وخطبائه، ولا على الممارسة الشعبية ومراسمها. وما ذاك في ما نرى إلا لأن عمل المفكر من جهة وعمل الجمهور من جهة أخرى، ينتميان إلى عالمين يختلفتن في منازعمها ومناهجها وأهدافهما.

إذاً، فنحن نواجه في هذه الحالة الشائكة وضعاً شاذاً يتميز بأنه يتحرك على خطين متوازيين:

- الأول: مستوى أهل الفكر والتأمل المتمسكين بالأصول المتثبتين الذين يعملون على ربط الوظيفة الشرعية بمصادرها المعمول بها، وفقاً لقواعد منهجية محددة.
- الثاني: مستوى الجمهور الذي من طبعه وديدنه أن يتطلب دائماً الخارق وغير المألوف، يرفده ويرضيه ما برع في توليفه لخطباء المنبر الحسيني وما برع في توليفه لهؤلاء أمثال واعظ كاشفي والسيد عبد الرزاق المقرم.

إذاً بقيت الأمور تسير على هذا المنوال، فمن الممكن أن يبقى هذا المستويان سائرين بشكل متوازٍ إلى ما لا مهاية منظورة فلا يلتقيان، ولا يتباعدان منفرجين. أعني لن نرى في المنظور جيلاً جديداً من الخطباء المتثبتين، يتحرون الدقة في ما يتلون علينا، من موقع

القدرةالمنهجية على التمييز بين الصحيح والمختلَق بين ما هو من مصادر تحوز الجد الأدنى على الأقل من الثقة وبين ما هو بينالاختلاق، وكذلك من غير المتوقع أن تُرفع الصداقية عن الممارسة الشعبية وخطبائها لأسباب واضحة. وإن تكن الفتوى الشجاعة للسيد علي الخامنئي في تحريم التطبير تضع الأمور عند بداية جديدة، وتصلح تمهيداً لخطوات تالية. قلت كل هذا محاولاً تصويب سجال بدأ مرة أخرى، بدايةً لا تبشّر بخير.